وزارة التعليـــم العالي والبحث العلمـــي
جـــــامعـــــة ديـــــالـــــى
كليـــة التربيـــة للعلـــوم الانسانيـــة
قسم اللغـــة العربيـــة

الجهود اللغوية والنحوية عند الدكتور عبد العال سالم مكرم

أطروحة مقدمة

الى كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة في (اللغة العربية وآدابها)

من قبل الطالبة

زينب محمد صالح خوشناو

إشراف

الأستاذ الدكتور

إبراهيم رحمن حميد الأركي

رجب 1436 هـ   نيسان 2015 م

الفصل الأول

موقف عبد العال سالم مكرم من أدلة الصناعة

المبحث الاول : السماع .

المبحث الثاني : الاستدلال العقلي .

المبحث الاول : السماع

يُعّد السماع الأصل الأول من أصول اللغة والنحو ، وتأتي أهميتُهُ من أمور ثلاثة هي[1] :

1- الدليل إلى القاعدة قبل استخراجها .

2- الشاهد على صحة القاعدة بعد ذكرها .

3- الطريق الأقوم إلى تعرف طبيعة اللغة وبيان خصائصها وهو أقرب سبيل الى ضبط العربية ومعرفة المستعمل منها من غيرهِ .

والسماع واحد من الأصول التي اعتمد عليها البصريون والكوفيون ، فلم يقتصر على فئةٍ نحوية من دون أخرى ، فالبصريون سَمِعوا اللغة وكذلك فعل الكوفيون ثم استنبطوا الأحكام ووضعوا القواعد ، ولكن كان لأهل البصرة السبق في ذلك بحكم أسبقية ظهور المذهب البصري ، وقد تشددوا في الأخذ " فلم يسمعوا إلّا من الفصحاء بشروط مشددة ، فكانوا لا يأخذون إلّا عن الثقات من الراوة ، أو فصحاء الأعراب ، كما حددوا سماعهم من قبائل قليلة كانت تقطن بوادي وسط الجزيرة وشرقها " [2] .

أما الدكتور عبد العال سالم مكرم فيقول: " ليست كل القبائل على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة ، ومن هنا يجب التحرّي في كل مسموع ، فإن كان من القبائل العربية الخالصة التي اعتصمت بالبادية ، وتحصنت بالصحراء من عاديات المدينة والحضارة ، واللّكنة والعجمة أخذ بهذا المسموع ، ورفضه إذا كان من مصدر آخر غير هذا المصدر المذكور" [3] .

ويعزز رأيه في قول السيوطي في كتابه (الاقتراح)[4] نقلاً عن أبي نصر الفارابي في كتابه(المسمى بالألفاظ والحروف) ما نصه :" الذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب وهم: قيس وأسد ، فأنَّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتّكل في الغريب ، وفي الإعراب ، وفي التصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم" [5].

---

[1] ينظر : الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه : 134، والأصول : لتمّام حسّان : 112.

[2] الشواهد والاستشهاد في النحو : 18.

[3] المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة: 330.

[4] ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو: 24.

[5] المدرسة النحوية في مصر والشام:331، وينظر:القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: 95.

قال مكرم : " لم يكن البصريون يأخذون اللغة من كل قبيلة ، لأن القبائل عندهم لا تتساوى في الفصاحة فهناك قبائل عاشت في عزلة تامة ، وأغلقت عليها باب الصحراء ، فكملت لها لغتها ، وصينت من كل تحريف ، وهناك قبائل اتصلت بغيرها ، وتأثرت بهذا الاتصال عن طريق الاختلاط او الجوار وهذه القبائل يحترس من لغتها ولا يؤخذ عنها ، لأنها لم تكن في عزلة تامة تصون اللغة من كل عبث يمتد اليها " [1] ؛ ويرى الدكتور عبد العال سالم أن السماع هو الأصل ، وموقفه من السماع ، يتضح ويتجلى مما أورده في دراساته اللغوية والنحوية المستفيضة بالشواهد ، وهي كالآتي:

أولاً : <u>القرآن الكريم وقراءاته :</u>

أ. **القرآن الكريم :**

هو كتاب الله المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ ، وقد تكفل الله تعالى بحفظه بقوله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر:9 ، وليس هناك كتاب نال ما ناله القرآن الكريم من التوثيق والعناية والحفظ والدراسة[2] ؛ قال الفراء(ت207هـ) : " والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر" [3] ؛ ويحق قول القائل أنه الينبوع الصافي والمعين الذي لا ينضب للشواهد الصحيحة الفصيحة [4] ؛ وقال عبد العال سالم مكرم: هو" الدعامة التي ترتكز عليها أصول الاستشهاد الاخرى" [5] وأقر النحاة بأنه كلام الله أُجري على كلام العِباد ، فكُلِّموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون[6] ؛ ومن هنا اتفق العلماء على أنَّ القرآن الكريم هو الأصل الاول من أصول الاستشهاد في اللغة والنحو ، لان لغة القرآن أفصح لغات العرب وأسهلها ؛ وهو المثل الأعلى إليه يفزع الفقهاء ، ومنه يأخذ علماء اللغة شواهدهم التي يبنون عليها قواعدهم وأصولهم [7] .

أما الدكتور مكرم فقد عُني عناية بالغة بالشاهد القرآني ، ولم يخرج عمّن سبقه في الغاية من الاستشهاد بألفاظ الكتاب العزيز ؛ إذ أكثر من الاحتجاج بالقرآن الكريم في مؤلفاته ، وما

---

[1] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية: 95.

[2] ينظر: النحاة والحديث النبوي : 20، وتعضيد شاهد الحديث النبوي: 44.

[3] معاني القرآن للفراء : 14/1.

[4] ينظر: الشواهد والاستشهاد في النحو: 201-202.

[5] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 329.

[6] ينظر: الكتاب:1/ 331، والشاهد وأصول النحو : 137، والقراءات القرآنية بين المستشرقين والنحاة:40.

[7] ينظر: مدرسة البصرة النحوية : 229 ، والشواهد النحوية : 97 ، ودراسات في كتاب سيبويه : 11.

كتاباه (القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية) ، والآخر (القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية) إلا دليل حرصه على الاستدلال بالقرآن الكريم وقراءاته ، والأمثلة التي تؤيد استشهاده بالشواهد القرآنية كثيرة ، سنوضحها فيما يأتي:

أولا : رأيه في موقف البصريين من الاستشهاد بالقرآن الكريم :

عاب مكرم على البصريين في عدد من المسائل النحوية أنّهم اعتمدوا فيها على أصولهم التي ترتكز على الفلسفة والمنطق في حين أنهم أغمضوا عيونهم عن الآيات القرآنية التي كان من الممكن أن تكون دعامة قوية لهذه المسائل النحوية[1] ، ومنها :

1- ما قاله في موضوع (العطف على اسم إنَّ بالرفع قبل مجيء الخبر): " ذهب الكوفيون إلى انه يجوز العطف على موضع اسم (إنّ) قبل تمام الخبر ، واحتج الكوفيون بقوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى} المائدة : 69, وجه الدليل انه عطف (الصابئون) على موضع (إنّ) قبل تمام الخبر ، وهو قوله: { من آمن بالله واليوم الآخر} ، وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا: والدليل على أن ذلك لا يجوز انك إذا قلت : إنك وزيد قائمان وجب أن يكون زيد مرفوعا بالابتداء ووجب أن يكون عاملاً في خبر زيد ، وتكون (إنّ) عاملة في خبر الكاف ، وقد اجتمعا في لفظ فلو قلنا: إنه يجوز فيه العطف قبل تمام الخبر لأدى ذلك إلى أن يعمل في اسم واحد عاملان ، وذلك محال " [2] .

2- رفضه منهج البصريين في التخريج والتأويل في كتاب الله تعالى ، إذ قال: " وكنا نودّ تقديساً للقرآن الكريم ، وللغته الفصحى ألا يكون هذا القرآن موضعا للتأويلات ، ومسرحاً للتخريجات ، ما لم تكن هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، ولكن هكذا شاء القدر أن يلتزم البصريون منهج التخريج والتأويل في كتاب الله تبارك وتعالى"[3] ، ومن أمثلة ذلك : في حديثه عن (إلاّ بمعنى الواو): إذ ذهب الكوفيون إلى أن (إلاّ) تكون بمعنى الواو واحتجوا بقوله تعالى: { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ } البقرة/150 ، أي : ولا الذين ظلموا ، يعني والذين ظلموا ألا يكون لهم أيضا حجة ، وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو ؛ وتأول البصريون هذه الآية بأن (إلاّ) ها هنا استثناء منقطع والمعنى : لكن الذين ظلموا يحتجون عليكم بغير حجة [4] .

---

[1] ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 108

[2] المصدر نفسه ، وينظر: الإنصاف (مسألة 23): 185/1-186 .

[3] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 113.

[4] ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 115، والإنصاف(المسألة-35): 266/1.

3- ذكر مكرم أن البصريين جاؤوا بالشواهد القرآنية لتأييد مقاييسهم وأصولهم اللغوية في مسائل عديدة[1] ، ومنها (القول في تقديم معمول اسم الفعل عليه) إذ ردّ البصريون على الكوفيين الذين جوزا ذلك محتجين بقوله تعالى: { كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ } النساء:24 ، أن كتاب الله ليس منصوباً بعليكم ، وإنما هو منصوب لأنه مصدر، والعامل فيه فعل مقدر وإنما قدر هذا الفعل ، ولم يظهر لدلالة ما تقدم عليه من قوله تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ } النساء: 23.

ثانياً: رأيه في موقف الكوفيين من الاستشهاد بالقرآن الكريم :

قال مكرم: " أنَّهم في مجال القرآن الكريم ، كانوا أكثر من البصريين في الاستدلال بآياته ، والاحتجاج بأساليبه ؛ ذلك لأنهم يؤمنون أن القرآن جاء بلغات مختلفة فصيحة ، فهو أحق بالقبول ، وأجدر بالأَخذ ، حينما تبنى قاعدة ، أو يقرّر حكم ، أو يُصحح أسلوب "[2] ، ومن المسائل التي استشهد لها الكوفيون بالقرآن الكريم : (مِنْ) تستعمل في الزمان كما تستعمل في المكان عند الكوفيين ، وجواز تقديم معمول اسم الفعل عليه [3] .

ومن هذا يتضح لنا أنهم كانوا أوسع أفقا وأرحب صدراً من البصريين في الاستشهاد بالقرآن الكريم فقبلوا كل ما جاء من القرآن مؤثرين في كثير من الأحيان عدم التأويل والتخريج , وسائرين في الأعم الأغلب على ظواهر الآيات لا تثنيهم عن ذلك قاعدة سابقة ، ولا يقف من دون قبولهم للآيات القرآنية عائق من قياس ؛ لأنهم يقيمون لكل مسموع وزنا وليس في المسموعات ما هو أجدر من القرآن الكريم بأنْ يؤخذ بكل ما جاء فيه من شواهد تمنح القاعدة شموخاً وتعضيداً وقوة.

ب - القراءات القرآنية وموقف مكرم منها :

هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرها[4] ، وأنّ القراءات تختص بالمختلف فيه من الفاظ القرآن الكريم في حين نجد علماء القراءات يوسعون دائرة شمول القراءات إلى المتفق عليه أيضاً ، وذلك في تعريفهم لعلم القراءات[5] ؛ وذكر ابن جني انه يصح الاستشهاد بالقراءات القرآنية : سواء أكانت متواترة أم آحاداً أم شواذَّ ؛ وكذلك السيوطي فذكر أنّ كل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية

---

(1) ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 119-121.

(2) المصدر نفسه : 123.

(3) ينظر: المصدر نفسه : 125، 165، 124، وأسرار العربية : 272 ، وشرح التصريح: 34/2، 164/2

(4) ينظر: البرهان في علوم القران : 318/1 .

(5) ينظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 123.

سواء أكان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً[1] ؛ وقد تعددت القراءات القرآنية لتعدد لهجات العرب ، إذ كانت أساساً لقراءات القرآن الكريم ، فقد روي عن الرسول الكريم محمد ﷺ انه قال: " إنّ هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه "[2] ، فالقرآن الكريم نزل على قوم: " لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى ، ويعسر على احدهم الانتقال من لغته الى غيرها أو من حرف الى آخر .... فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم ، لكان من التكليف بما لا يستطاع "[3] .

وتعد القراءات القرآنية ذخيرة لغوية ونحوية ؛ إذ إنّها تعضد قواعد النحو ، وتدعم شواهده ، ويمكن منها دراسة اللهجات العربية ، وفيها تتجلى خصائص اللغة العربية لما فيها من ظواهر صرفية أو نحوية ؛ وما من وجه من وجوه القراءات أو أسلوب من أساليب الضبط الصوتي أو الإعرابي إلّا له سبب يرتكز عليه من لغة العرب ومن القواعد الإعرابية[4] .

اما القراءات الثابتة المتواترة فهي اقوى في الاستشهاد من الشعر وغيره ، إذ إنَّ القراءة لا تخضع للضرورة ولا لقيود الوزن بل يخضع لها الشعر[5] , فاللغة إذا وردت في القرآن الكريم فهي أفصح مما في غير القرآن[6] ، مما يَنُمُّ عن مدى الاهتمام بالقراءات القرآنية ، والاحترام الكامل لها ، والثناء المستفيض عليها ، ويدل على ذلك أيضا توجيهه للقراءات القرآنية على لهجات العرب ؛ فالقراءات القرآنية تعد مصدراً أصلاً لدراسة اللهجات ، ذلك لأنها المرآة الصادقة التي تعكس الواقع اللغوي الذي كان موجوداً قبل الاسلام في شبه الجزيرة العربية[7] ؛ وذكر مكرم من الحق أن نقول : إنّ القرآن الكريم لم تنزل كل صيغه وتراكيبه بلهجة قريش وحدها ، وإنما نزل معظمه بلهجة قريش ، وفيه من لهجات العرب الأخرى ظواهر لغوية ونحوية ، جاءت من أجل أنْ يكون التحدي للغة العرب جمعاء ، وليس للغة قريش وحدها ، ليكون التحدي أتم ، وإظهار المعجزة أبلغ[8] ، وعلل ذلك بقوله : " أقول : لو كان الأمر كذلك لما تمت المعجزة ، وأدّعى كثير من الكافرين المكابرين أن القرآن الكريم نزل بالأفصح مما يعزّ على الفصحاء أن يأتوا بمثله

---

(1) ينظر : النشر في القراءات العشر : 9/1 ، وإتحاف فضلاء البشر : 3 .

(2) القراءات القرآنية (تاريخ وتعريف) : 55

(3) النشر في القراءات العشر : 22/1.

(4) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية : 81، 136 .

(5) ينظر : الشواهد و الاستشهاد في النحو : 279.

(6) ينظر : المزهر : 213/1.

(7) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية : 83-84 .

(8) ينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 34.

ولو نزل بالفصيح وحده لكان من الممكن للفصحاء من القبائل الأخرى أن يأتوا بمثله "[1] ؛ ويعزز مكرم رأيه هذا بقول ابن الجزري: " لو جاء كله بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد من كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح ، فلا تتم الحجة في الاعجاز ، إذ يقال مثلاً : إنّه جاء بما لا قدرة للعرب على جنسهِ "[2] ؛ قال مكرم : " ولا أقول: إنّ القراءات القرآنية قرئت وفق اللهجات المختلفة على حسب ما تنطق الألسنة ، لأن ذلك يؤدي إلى اضطراب وتشكيك في هذه القراءات ، لأن القراءات متواترها وشاذها وإن كانت فيها ظواهر لهجية فهي محكومة بالرواية والنقل عن رسول الله ﷺ " [3] .

وعدّ مكرم القراءات القرآنية وآراء القدامى والمحدثين في مجالها مسألة كبيرة وخطيرة معاً ، وذكر أنَّ " اللغة القرشية لم تكن هي اللغة الوحيدة التي نزل القرآن الكريم بها ، وإنما هناك لهجات بجانبها قرأ بها رسول الله ﷺ "[4] ؛ وقد أورد مكرم عدداً من الامثلة التي تؤيد ان القراءات القرآنية اساسها اللهجات او اللغات التي نزل بها القرآن الكريم ، وذلك في كتابه(القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية)[5] ، وتوصل مكرم الى " ان القرآن الكريم صورة صادقة للغة الادبية النموذجية القرشية الى جانب ظواهر لغوية اخرى جاءت على وفق اللهجات العربية السائدة لتتم المعجزة , وليكون القرآن الكريم كتاب العربية الخالد , لا فرق بين لهجة ولهجة ولا بين لغة ولا لغة , ما دامت هذه اللهجات تصب في مورد واحدة وهو اللغة العربية " [6] .

يرى الدكتور مكرم انه لما استقرت قواعد النحو مسجلة في (الكتاب) وظهرت المدرسة البصرية , ثم الكوفية , اتجه النحاة الى القراءات , آخذين منها ما يؤيد وجهة نظرهم من جهة , ورافضين ما لم يقبله القياس , او يتفق مع الاصول من جهة اخرى , وكانت دائرة الخلاف تتسع وتضيق تبعاً لبعد هذه القراءات عن الاصول والمقاييس أو قربها منها, ويبين لنا مكرم أنَّ

---

[1] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 35.

[2] النشر : 1/ 9 ، وينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 36.

[3] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات النحوية : 36.

[4] المصدر نفسه : 37 .

[5] ينظر : القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية : 36 ، وقضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 42 ، وإصلاح المنطق : 31 ، وإعراب القرآن للنحاس : 120/1 ، والتبيان للطوسي : 31/1 ، وإعراب القراءات الشواذ : 31 ، وشرح الجاربردي على الشافية : 277/1 ، وشرح الرضي على الكافية : 172/2 ، والعربية ليوهان فك : 32 ، وهمع الهوامع : 61/1، 133

[6] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية :42.

الخلافات النحوية في مجال القراءات لم تكن وقفاً على البصريين او الكوفيين , بل تجاوزت ذلك الى المذاهب الفردية والآراء الشخصية لمشاهير النحاة , إذ كثر بينهم الجدل حول هذه القراءات , واحتدم النزاع [1].

وذكر الدكتور عبد العال سالم مكرم أنَّ موقف البصريين من القراءات لم يكن موقفا منهجياً مقبولاً , وذلك لأنهم يحتجون بها حين تتفق مع أصولهم , وتساير قواعدهم وتتماشى مع منهجهم ؛ أمّا حين تتعارض مع ما وصلوا إليه من قواعد فجزاؤها الرفض والإنكار أياً من كان القارئ ، ومهما صح سند الرواية ، فالقواعد أصل والقراءات تعرض عليها ، فما وافقها قبل ، وما خالفها رفض[2] ؛ أما الكوفيون فإنهم لم يتحفظوا في مجال القراءات كما تحفظ البصريون ؛ أنهم رأوا أنَّ القراءات سندها الرواية , وهي من اجل هذا اقوى في مجال الاستشهاد من الشعر وغيره ؛ لأنَّ شعار الرواة فيها الدقة والضبط والإتقان ، ومن ثم كانت في نظرهم مصدراً لتقعيد القواعد وبناء الأساليب , وتصحيح الكلام بغض النظر عن موافقتها للمقياس المأخوذ أو عدم موافقتها , لأنها في ذاتها يجب ان تشتق منها المقاييس , وتستمد الأصول[3] .

وبعد ما عرض مكرم موقف البصريين والكوفيين من الاستشهاد بالقراءات القرآنية يؤيد المنهج الكوفي ويتفق معه معللاً ذلك بقوله : " ومنهج الكوفيين في الواقع أسلم وأصح في ميدان القراءات من منهج البصريين , لأنّ اتخاذ القراءات مصدراً للاستشهاد يثري اللغة , ويزيد من رصيدها , ويجعلها غنية بأساليبها على الدوام , فلا تمد يدها الى تعريب أو دخيل "[4].

ومن الحق أنْ نقول إنَّ الكوفيين كانوا اقل تخطئة للقراءات من البصريين , وأكثر قبولا لها لكنهم تهجموا عليها في بعض الاحيان مما يجعلنا نؤيد ما ذهب اليه الدكتور أحمد مختار عمر : " إنَّ احترامهم للقراءات وحسن تقبلهم لها, انما يرجع الى ما عرفوا به من توسع في اصول اللغة وقياس على القليل واعتداد بالمثال الواحد , فأمكنهم بذلك توجيه كثير من القراءات وتخريجها على مقتضى اصولهم ومن هنا قلّت تخطئتهم لها "[5] .

---

[1] ينظر : القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية : 108 ، ومعاني القرآن للفراء : 75/2 , والخصائص : 94/1 , وسر صناعة الإعراب : 206/1 , والإنصاف : 249/1 , والبحر المحيط : 230/4 , والاقتراح : 17.

[2] ينظر : القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 100.

[3] ينظر: القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية :109 , ومعجم القراءات القرآنية : 101

[4] القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية :110، وينظر : أبو حيان النحوي : 297.

[5] البحث اللغوي عند العرب : 13.

وترى الباحثة أنَّ الدكتور عبد العال سالم مكرم , مثله في ذلك مثل سائر النحاة – يعد القراءات القرآنية دليلاً مؤيداً , وشاهداً مقوياً لما يراه من آراء صوتية أو صرفية أو نحوية , لا يفرق في الاستشهاد بين المتواترة والشاذّة والأمثلة على ذلك كثيرة[1] , ودعا مكرم الى التمسك بالاستشهاد بالقراءات القرآنية وبقوة كونها واحدة من أهم أصول الاستشهاد اذ يرى أنّ " القراءات سجل وافٍ للغات التي نزل بها القرآن الكريم , وما دام سندها الرواية , ودعامتها السماع , فهي من اجل هذا أقوى من المصادر الاخرى , كالشعر وغيره , لأنَّ رواة القراءات يتحرجون من عدم الدقة فيها على حين لا يبالون بالحرج في غيرها حينما تخون الحافظة , أو يستبد النسيان , أو يقع على الألسنة التحريف " [2] .

اما القراءات القرآنية الشاذة ، فقد أكّد مكرم ضرورة الاستشهاد بها والاعتماد عليها ، وسلط الضوء على أهميتها , إذ قال : " القراءات القرآنية الشاذة توضح المراد وتكشف المبهم , وتحدد المعنى المختار " [3] ؛ ومن ذلك مثلا قوله عن قراءة قوله تعالى :{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ } آل عمران : 7 ، إذ يرى مكرم " أنَّ هناك قراءات شاذة ترجح الرأي الاول وهو أن تأويله موقوف على الله تعالى وحده وهو ما ذهب إليه الأحناف وهذه القراءات الشاذة متمثلة في قراءة ابن مسعود : { إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون } وقراءة أُبَيّ { ويقولون الراسخون في العلم } ، والوقف على قوله آمنا به : حسن " [4] .

من هنا يخلص مكرم الى " أنَّ القراءات الشاذة ساعدت في فهم المعنى المراد من هذه الآية , وقوّت رأياً على رأي , ورجحت جانباً على جانب " [5].

وأشار الدكتور عبد العال سالم مكرم إلى أنَّ القراءات الشاذة لها اثرها في التفسير اللغوي للمفردة العربية , إذ قال : " قد تحوي الكلمات الشاذة كلمات توضح معاني الكلمات التي وردت في قراءة العامة أو الجمهور" [6] ؛ ومن الامثلة على ذلك قراءة ابن مسعود : { كالصوف

---

[1] ينظر : الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي : 121 , 173.

[2] القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية :110.

[3] المصدر نفسه :85 .

[4] المصدر نفسه : 86.

[5] المصدر نفسه : 87.

[6] المصدر نفسه :88.

المنفوش } وقراءة الجمهور{ كالعهن المنفوش } [1] ، وقراءة ابن مسعود وإبراهيم : { وزوجناهم بعيس عين } وقراءة الجمهور{ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ } الطور:20 , قال ابن جني في المحتسب : " الاعيس : الأبيض , وأن المرأة العيساء : البيضاء , ومنه جمل أعيس , وناقة عيساء ، وقال في وصف امرأة : كأنها البكرة العيساء "[2] ؛ ويرى مكرم أنّ لها أثر كبير في التيسير اللغوي , إذ يقول: " لا شك أنَّ القراءات الشاذة مورد ضخم لكثير من الاستعمالات اللغوية التي تدل في ظاهرها على بعدها من البناء اللغوي السليم , وعند التدقيق والتحقيق ، تبين لنا أن هذه الاساليب التي نرميها بالبعد عن العربية , لها ما يسندها من القراءات القرآنية "[3] ؛ ومن ذلك : الفعل(هُرِع) في كتب اللغة مبني للمجهول دائماً , ومضارعه (يُهرَعُ) , فإذا قيل , إن فلاناً هَرَعَ بالبناء للمعلوم إلى أداء الواجب رمينا من قال بهذه الصنيعة بأنه خرج عن الخط اللغوي السليم , ولكن من القراء من قرأ : { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ }هود:78 ، يقول مكرم : " وعلى الرغم من أنَّ هذه القراءة مجهولة القارئ إلا اننا نعتمد عليها في المجال اللغوي لتصحيح بناء يهرعون للمعلوم "[4] ؛ ومن هذه القراءة الشاذة يؤكد مكرم حقيقة يجب ألّا نتجاهلها وهي أنّ القراءة ولو كانت شاذة ليست رأياً أو مذهباً أو منهجاً , ولكنها سماع ورواية , ودليله على ذلك أنَّ هذه الصيغة كررت في (الصافات) في قوله تعالى: { فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ } آية70 , وجاءت على اللغة الفصيحة بالبناء للمجهول , وإلّا لقُرِءَت مرة أخرى في هذا الموضع بالبناء للمعلوم , لأنَّ الذي قرأها في (هود) شاذّة بالبناء للمعلوم من السهل أنْ يسير على مذهبه فيقرؤها في الصافات بالبناء للمعلوم[5] .

وأخيراً يصرح مكرم بأنَّ " القراءات القرآنية , ولاسيّما القراءات الشاذّة يجب أن يعاد فيها النظر من حيث الدراسة والبحث لاستخراج ظواهر لغوية قد تصحح الكثير من أساليبنا اللهجية الحديثة , وبدلاً من أنْ يخطئ بعضنا بعضاً من غير روّيةٍ , علينا أن نطمئن اولاً , هل هذه الاساليب لها ما يقابلها من القراءات , فإنْ كان الجواب بنعم فقد قطعت جهيزة قول كلّ خطيبٍ , وان كان الجواب بالنفي قررنا أن هذه الأساليب ليست عربية الاستعمال "[6] .

---

[1] ينظر : معاني القرآن للفراء : 3/ 286 , وإعراب القرآن للنحاس : 758/3 , والكشاف :179/4 .

[2] المحتسب : 261/2 , 290.

[3] القراءات القرآنية وأثرها في الدراسات النحوية : 89.

[4] المصدر نفسه : 90.

[5] ينظر: المصدر نفسه :91.

[6] المصدر نفسه :91.

من هذا نخلص الى أنَّ القراءات القرآنية التي تعاورها النحاة كانت مادة من مواد الدرس النحوي ؛ لأنها وان تفاوتت النظرة اليها , واختلفت الآراء في رفضها أو قبولها – احدثت نوعاً من التفاعل البناء بين النحاة , فالقرآن الكريم الذي جاء على سبعة أحرف كلّ منها شافٍ وافٍ , لا سبيل لتخطئة قراءاته اذا ما توافرت فيها شروط القراءة الصحيحة , ولم تخرج عن مقاييس اللغة نثرها وشعرها[1] .

ثانياً : الحديث الشريف وموقف مكرم من الاستشهاد به :

الحديث في الاصطلاح هو: ما نسب إلى الرسول ﴿ﷺ﴾ من قولٍ , أو فعلٍ , أو تقرير, أو وصف[2] , فهو يشمل قول النبي ﴿ﷺ﴾ , كما تدخل فيه أقوال الصحابة (ﷺ), لأنّهم هم الذين نقلوا لنا افعال النبي ﴿ﷺ﴾ وصفاته وما حدث , او قيل في حضرته فأقره ﴿ﷺ﴾ [3] .

يُعد الحديث النبوي الشريف أصلا من أصول النحو , ومصدراً من مصادره السماعية , وقد كان من الحق ان يأتي في الاحتجاج بعد القرآن الكريم , وقبل كلام العرب من شعر أو نثر , لما فيه من الفصاحة النبوية ، وصحة اللفظ ، ودقة المعنى , وما بذل فيه من التحري والتشدد في التدوين[4] , حتى إذا وقع الحديث النبوي في كتب بعض النحاة كان تقوية لما يُستشهد به من القرآن الكريم او كلام العرب من دون أن يكون مقصوداً إليه في الاستشهاد أو الاحتجاج او مصدراً لاستنباط حكم نحوي[5] .

إنّ كلام النبي﴿ﷺ﴾ له أهمية كبيرة لان " العربية لا تعرف بعد القرآن الكريم كلاماً يسامي الكلام النبوي ، أو يدانيه فصاحة مبنًى , وبلاغة معنًى , وبراعة تركيب , وجمال أسلوب , وروعة تأثير " [6] .

قال الجاحظ (ت255هـ) : " فليس يعرف في التاريخ اللغوي العربي نثر – بعد القرآن الكريم – أعم نفعاً , ولا اصدق لفظاً , ولا اعدل وزناً , ولا أجمل مذهباً , ولا أكرم مطلباً , ولا أسهل مخرجاً , ولا أفصح عن معناه , ولا أبين عن فحواه , من كلامه ﴿ﷺ﴾ " [7] .

---

(1) ينظر: أثر القراءات القرآنية في الدرس النحوي (بحث للدكتور مؤيد إسماعيل نعيم) : 5 .

(2) ينظر : مقدمة في أصول الحديث : 33 , ومصطلح الحديث للعثيمين :9.

(3) دراسات في العربية وتاريخها : 166 , وينظر : الكليات : 202/2.

(4) ينظر : النحاة والحديث النبوي:45 , وموقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف : 15.

(5) ينظر : أصول النحو العربي :55 , والشواهد والاستشهاد : 300-301.

(6) نظرات في اللغة والنحو : 20-21.

(7) البيان والتبيين : 15/2.

كان نصيب الحديث النبوي في كتب النحاة قليلا جداً مقارنة بأدلة السماع الأخرى , فقد وجد الحديث النبوي في كتب اللغويين والنحاة على درجات متفاوتة منذ أيام سيبويه , ولم ينكر عليهم أحدٌ ذلك[1] .

تباينت مواقف العلماء من الاستشهاد بالحديث الشريف , فمنهم من منع الاستشهاد به مطلقاً ومنهم من اجاز الاستشهاد به , ومنهم من وقف موقفاً وسطاً من حيث الجواز وعدمه ؛ أما موقف مكرم من الاستشهاد بالحديث الشريف فيذكر أنّ أصل كتابة الحديث وقع في عهد النبي﴿ﷺ﴾ , وممن كان يكتب الحديث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص الذي تحدث عنه أبو هريرة , فقال : " ما كان احد أحفظ لحديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ مني إلا عبد الله بن عمرو , فأنه كان يكتب ولا اكتب "[2] .

يعقب مكرم على هذا النص متسائلاً : " ماذا يقول إذن هؤلاء المانعون في هذه الاحاديث التي كتبت مباشرة حينما تفّوه بها النبي﴿ﷺ﴾ , ومما لا شك فيه أنها كتبت بألفاظها وحروفها ولم يسقط منها شيء "[3] ؛ ويستدل مكرم بجملة من الشواهد التي تثبت أنّ الحديث دوّن بعيداً عن الشبهة في ألفاظه وتراكيبه , فنراه يقول : " يحدثنا الشيخ محمد الخضر حسين بأن تدوين الحديث وقع بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز المتوفى(101هـ) , ومن المروي في الصحيح انه كتب إلى أهل الآفاق: أن انظروا ما كان من حديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ وسنته فاجمعوه واكتبوه , وأول من دوّن الحديث محمد بن مسلم الزهري المتوفى(124هـ) , والمعروف انه كان يروي عن الصحابة , مثل عبد الله بن عمر , وانس بن مالك وسهل بن سعد الساعدي" [4] , ويعقب مكرم بقوله : " والمعروف ان عصر محمد بن مسلم الذي دوّن فيه الحديث عصر السليقة والطبع , فالحلقة لم تفسد ولم يكثر اختلاط العرب بالأعاجم إلا في العصر العباسي ولما جاء رواة الحديث المتأخرون في العصر العباسي ، كالبخاري والنسائي فإن معظم ما في كتبهم الستة كان معروفاً في الكتب المصنفة من قبل " [5] .

---

[1] ينظر : خزانة الأدب :32/1 ، وشرح التسهيل : 46 ، والاقتراح :31 , والشواهد والاستشهاد في النحو :299 ، وموقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف : 5 ، والنحاة والحديث النبوي:45 ، وتوظيف الحديث الشريف في البحث النحوي : 508 , ودراسات في العربية وتاريخها : 169 ، والمدرسة النحوية في مصر والشام : 235 .

[2] الطبقات الكبرى لابن سعد : 189/7.

[3] المدرسة النحوية في مصر والشام : 238.

[4] المصدر نفسه : 239

[5] المصدر نفسه : 238- 239.

من هذا المنطلق يصرح مكرم بأنَّ الحديث الشريف أولى في مجال الاحتجاج في اللغة والنحو من شعر الشعراء والأقيسة والتعليلات ؛ يقول مكرم: " وعلى فرض أن بعض الأحاديث رويت بالمعنى فهذا لا ينقص من قدرها في مجال الاستشهاد: لان الرواة كانوا حريصين الحرص كله على أن يسجلوا ويرووا الحديث بلفظه كما هو , ولكن قد لا تسعف الذاكرة بتذكر كل كلمات الحديث فيحاول الراوي أن يأتي بلفظة أخرى تؤدي معنى اللفظة المفقودة , وما دام الراوي يعيش في عصر يحتج بشعره فمن باب أولى أن يحتج بما رواه وبما نقله عن النبي ﴿ﷺ﴾ "[1] ؛ أما فيما يخص المجوزين رواية الحديث بالمعنى فيرى مكرم أنّ السبب يرجع إلى محاولة هؤلاء الرواة الدقة والضبط , فقد قال مكرم : " إنّ السبب في رأيي الذي جعل العلماء يجوزون رواية الحديث بالمعنى يرجع إلى محاولة هؤلاء الرواة الدقة والضبط والإتقان في رواية الحديث , ولكن هم بشر ولهم طاقة وهم عرضة للنسيان , فلأجل بعدهم عن الكذب في حديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ بإتيان ألفاظ من ألفاظهم ونسبتها إلى النبي﴿ﷺ﴾ جوزوا الرواية بالمعنى حتى لا يقعوا في هذا المأزق الوعر الذي يجر عليهم غضب الله , ثم غضب رسول الله ﴿ﷺ﴾ " [2] .

ولخص مكرم **موقف البصريين والكوفيين من الاستشهاد بالحديث** بقوله: " أما الحديث الشريف فلم ينزله البصريون المنزلة اللائقة به , ولم يتخذوه مرجعاً في دراستهم , فحرموا اللغة بذلك من موردٍ عذب كان جديراً بأن ينهلوا منه , ومصدراً ثرياً كان يجب أن يصدروا عنه " [3] ؛ أما الكوفيون فقال عنهم : " لقد اعتدوا بالحديث واحتجوا به , لكن ليس بالكثرة التي تقتضيها نظرتهم للسماع واعتدادهم بلغات الأعراب جميعا , فعلى الرغم من استشهاد الكسائي والفراء بالحديث الشريف في بعض المواطن على إثبات حكم نحوي أو نفيه , فإنّ ذلك لا يمثل ظاهرة تستحق الدرس عند الكوفيين شأنهم في ذلك شان البصريين تجاه هذا المصدر" [4] .

وترى الباحثة أنَّ هذا التخريج الذي توصل اليه مكرم من تحليله لآراء المجوزين الاستشهاد بالحديث كان قريباً الى الصواب , ونجده مقنعاً ؛ إذ إن سبب رواية الحديث بالمعنى جاء من الرواة أنفسهم , وأنَّه اذا صدق القول بوجود بعض اللاحنين في رواة الحديث , فإنهم كانوا قلّة لا تذكر بجانب الرواة الموثقين الأعلام ؛ ويعجب مكرم من تعليل ابي حيان عدم الاحتجاج بالحديث بأنَّ رواته لم يكونوا عربا بالطبع , يقول مكرم: " وقد غاب عن ذهن أبي حيان أن إمامه

---

[1] المدرسة النحوية في مصر والشام : 239.

[2] المصدر نفسه : 243.

[3] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 101.

[4] المدرسة النحوية في مصر والشام : 239.

سيبويه عميد اللغة , وأستاذ أساتذتها , وصاحب القياس والتعليلات فيها , ومنتج الكتاب الذي يعد من اكبر الاصول في اللغة العربية وقواعدها ، غاب عن ذهنه ان سيبويه لم يكن عربيا , وانه كان اعجميا واللغة ملك لمن يتعلمها فكل من تعلم اللغة وتكلم بها وعرف قواعدها فهو عربي, وان كان نسبه أعجميا " [1] .

وأنكر مكرم على أبي حيان تشدده في عدم الاخذ بالحديث مع أن كثيراً من الاشعار العربية التي تعد في نظره أولى من الاحتجاج بالحديث , إذ يقول : " هذه الأشعار كانت مجالا لتغييرات الرواة , واستبدال كلماتها بكلمات من عندهم بل قد بلغ بهم ان يؤلفوا الشعر وينسبوه لشعراء مشهورين ، ومع ذلك فقد قعدت القواعد على أساس ما وضعوا ولم يكتف النحاة بهذا , بل نسجوا على منوالها الأساليب العربية " [2] .

وقال احد المحدثين : " الأحاديث الصحيحة , أهم كثيرا في نظرنا في اثناء البحث اللغوي من الشعر الجاهلي لأنها من النثر , وهو دائما يعطي الباحث اللغوي صورة صحيحة لروح عصره بخلاف الشعر , لأنه يحتوي على كثير من الصيغ الفنية والعبارات المتكلفة , التي تبعده عن تمثيل الحياة العادية الحقة , وتثنيه عن الروح السائدة في عصره بدون تكلف " [3] .

وتتفق الباحثة مع قول القائل : " لقد كان من المنهج الحق بالبداهة أن يتقدم الحديث النبوي سائر كلام العرب , من نثر وشعر, في باب الاحتجاج في اللغة والنحو ؛ إذ لم تعهد العربية في تاريخها بعد (القرآن الكريم) بياناً أبلغ من الكلام النبوي , ولا أروع تأثيراً , ولا أفعل في النفس , ولا أصحَّ لفظاً , ولا أقومَ معنى منه , ولكنَّ ذلك لم يقع كما ينبغي , لانصراف اللغويين والنحويين المتقدمين الى ثقافة ما يزودهم به رواة الأشعار خاصة , انصرافا استغرق جهودهم , فلم يبق فيهم لرواية الحديث ودراسته بقية " [4] .

ثالثا: كلام العرب

حين نذكر كلام العرب نعني به شعرهم ونثرهم , فالشعر يتضمن القصيد والرجز , والنثر يتضمن الخطب والقصص والحكم والأمثال[5] , وقد ذكرنا فيما سبق مدى اعتماد مكرم على

---

[1] المدرسة النحوية في مصر والشام :240 , وينظر : توظيف الحديث الشريف : 532.

[2] المصدر نفسه :240.

[3] تاريخ اللغات السامية : 206 , وينظر : الرواية والاستشهاد باللغة : 216.

[4] الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة على إثبات القواعد النحوية : 99.

[5] ينظر: دراسات في كتاب سيبويه : 80 .

القرآن وقراءاته والحديث النبوي في الاستشهاد , وقد آن لنا أن نعرف موقفه من كلام العرب شعره ونثره .

1 – النثر:

لم يحظ النثر بالاهتمام كما حَظي الشعر , لأنَّ أكثر النحاة القدامى عَدُّوا الشعر أعلى مرتبة من النثر , ولأنه أسهل في الحفظ والنقل من النثر " ولكونه أقرب إلى ما يريده منه العلماء من فصاحة وصفاء وبلاغة وصحة تعبير عن العواطف السامية " [1] ، إلا أن الدكتور عبد العال سالم مكرم كان له موقف مغاير مما أورده النحاة القدامى فيما يخصّ مكانة النثر ؛ إذ جعله مكرم قريناً للشعر , قال : " إنَّ النثر الجاهلي أعلن عن وجوده في الخطب والحكم والأجوبة والأمثال في مجال الحرب والسلم , وفي مجال الوفود والأسواق الأدبية , مما جعل هذا النثر قرين الشعر في فنه وبلاغته , وفي تصويره المبدع وألفاظه الرنانة , ومعانيه الفطرية التي نتجت عن البيئة التي نشأ فيها الناثر أو الشاعر " [2] .

ولم يقتصر رأي مكرم بالنثر على أنه قرين الشعر , ولكن تجاوز ذلك الى ان جعل النثر أسبق من الشعر , قال : " إنّ النثر الأدبي أسبق من الشعر , لان النثر وليد العقل ونتاج الفكر , ولا يمكن بأية حال من الاحوال أنْ يكون هناك شعور وإحساس , وخيال وعاطفة إلّا إذا ارتكز ذلك كله على العقل والتفكير , وإلّا لكان هذا الشعر أصواتاً لا تبين , وكلمات ممزقة مقطعة ليس بينها رابطة ؛ لأنَّ الذي يرتب الكلام , وينظم الشعور ويختار لفظا على لفظ , ويضع جملة مكان جملة إنما هو أولاً وأخيراً العقل والفكر " [3] .

وقد استشهد مكرم بقول ابن رشيق في كتابه " العمدة " إذ قال : " وكان الكلام كله منثوراً , فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم اخلاقها وطيب أعرافها , وذكر أيامها الصالحة , وأوطانها النازحة , وفرسانها الأمجاد , وسمحائها الأجواد , لتهز أنفسها إلى الكرم , وتدل أبناءها على حسن الشيم , فتوهموا اعاريض جعلوها موازين الكلام , فلما تم لهم وزنه سموه شعرا , لأنهم شعروا به , أي : فطنوا " [4] .

وذهب مكرم إلى أن العرب كان لهم منثور جيد , ولم يحفظ منه إلا القليل , وهذا أمر طبيعي لان الذاكرة لا تستطيع ان تستوعب هذا التراث النثري لتكتنزه في خلاياها وتنقله الى

---

[1] دراسات في كتاب سيبويه : 80 .

[2] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 24.

[3] المصدر نفسه : 12 .

[4] العمدة : 1/20-21 , وينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات القرآنية : 12-13.

الاجيال التالية جيلا بعد جيل , مما أدى الى ان يكون حظ الشعر في الرواية والنقل اكبر من حظ النثر في حفظه وتناقله جيلا بعد جيل ؛ وعبر عن هذا ابن رشيق بقوله " لم يبق من المنثور الا عشره ولم يضع من الموزون إلا عُشره " [1] .

وأكد مكرم حقيقة وجود النثر الفني قبل الإسلام , إذ قال : " إنَّ النثر الفني في العصر الجاهلي حقيقة لا تقبل الشك وواقع لا يقبل الجدل , ويكفي دليلا على ذلك ان القرآن نزل بلغة النثر وليس بلغة الشعر , وتحداهم في المجالين فان لم يكن للعرب نثر , فلم التحدي , والتحدي لا يكون إلّا للأقوياء إذ كيف يتحدى القرآن الكريم قوماً لغتهم كلغة الأطفال , أو أنَّ النثر في عهدهم كان يحبو ولم يصل الى طور الشباب والقوة ؟ وبعد هذا التساؤل يجيب مكرم قائلا : ذلك منطق مرفوض وقضية خاسرة . وحدد مكرم العصر الإسلامي تأريخا للنثر الجاهلي استوى فيه عوده , وبلغ فيه أشده إلى " الحد الذي جعله يباري الشعر وينافسه في خياله , ويجاري تصويره في اساليبه من حيث تدفق العاطفة , وجمال التعبير " [2] ؛ ولم يصل إلينا من هذا الموروث الجم إلّا القليل , وقد كان وراء هذا عدة أسباب منها : أنَّ النحاة أنفسهم كانوا يعتقدون أنَّ رواية الشعر أدق بكثير من رواية النثر , وأنَّ تذكر المنظوم أيسر بكثير من تذكر المنثور وأنَّ احتمال التغيير والتبديل في الشعر أقل من احتماله في النثر , لأنّهم كانوا يحرصون على تصوير الأساليب العربية في أدق صورها [3] ؛ وإذا أخذنا جانب الحفظ وجدنا الشعر أهون على النفس من النثر وإذا حُفِظ كان أعلق وأثبت [4] .

ومن الأسباب أيضا : إنّ النحاة أنفسهم كانوا ينظرون الى الشعراء المعتد بروايتهم نظرة احترام واعتزاز , وكان هذا ينسحب على ما يقولونه من أشعار تُعد في نظر النحاة حجة تلتمس لها التأويلات والتخريجات إنْ ورد فيها ما يخالف القواعد النحوية العامة ولم يجرؤ اللغويون في الاعم الاغلب على رميهم بالخطأ أو القصور [5] ؛ لذلك انصرف جلّ اهتمام النحاة إلى الشعر , فجعلوه مصدراً لاستخراج القواعد واعتمدوا عليه في الاستشهاد , لذلك فكتب الشواهد لا تحوى غير الشعر ولا تُعنى كثيراً بما عداه [6] .

---

[1] العمدة : 220/1 , وينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات القرآنية : 13.

[2] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 16 ، 127 ، وينظر : نشأة النثر العربي : 68 -69 .

[3] من أسرار اللغة :251 , وينظر : مواقف النحاة من القراءات القرآنية :41 .

[4] ينظر : الحيوان : 490/6 .

[5] ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو : 34-35 .

[6] ينظر : البحث اللغوي عند العرب : 39 .

أما الدكتور عبد العال مكرم فقد عُنيَ بالموروث من النثر الفني وكان له موقف من إثبات وجوده وأنَّه قرين الشعر وأسبق منه , أما صور استشهاده فكانت عن طريق استدلاله له باللهجات (لغات العرب) , والأمثال كما سنبين ذلك ؛ وقد وجه مكرم عناية كبيرة بلهجات العرب وأقوالهم المأثورة , غير الأمثال والحكم , إذ يتجلى ذلك فيما يأتي :

أ- اللهجات أو لغات العرب وموقف مكرم منها :

ينبغي في بداية حديثنا عن اللهجات أن نشير إلى نقطتين بالغتي الأهمية : الأولى : إنَّ النحاة قرروا أنَّ اللغات على اختلافها كلها حجة , ومن هنا حرص مكرم على مراعاة لغات العرب [1] ، مستشهدا بما قاله النحاة القدامى كابن جني : " اللغات على اختلافها كلّها حجة , ألا ترى أن لغة الحجاز في إعمال (ما) , ولغة تميم في تركه , كل منهما يقبله القياس , فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى " [2] ، وقوله " إن كل ما كان لغة لقبيلة قِيس عليه , وان الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ " [3] . أما الأخرى ؛ فهي أنّ اللغة المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم وجاء عليها الشعر الجاهلي , استمدت خصائصها من اللهجات العربية المختلفة , وليست من لهجة قريش فقط [4] .

أما مكرم فقد قال : " ولا شك أنَّ اللهجات العربية قبل الاسلام تفاعلت واختلطت بعضها ببعض ، وتكوّن من هذا الاختلاط لغة أدبية فصيحة , فيها الكثير من ألفاظ اللهجات العربية وتراكيبها مما جعلها فيما بعد اللهجة , أو اللغة الادبية النموذجية التي جرى على نسجها الشعر الجاهلي , والتي تهيأت بعد ان بلغت القمة في سمو تراكيبها , ودقة معانيها , وروعة أساليبها أن تستقبل القرآن الكريم لينتقل بها في العصر الاسلامي الى لغة حيّةٍ استوعبت حضارة الإنسان , بفضل القرآن الكريم " [5] ؛ وذهب مكرم إلى أنَّ اختلاف اللهجات يخضع لمقاييس تتمثل فيما يأتي [6] :

1- الاختلاف في الحركات , نحو : نَستعين ونِستعين بفتح النون وكسرها .

2- الاختلاف في الحركة والسكون , نحو : مَعَكم ومَعْكم .

---

[1] ينظر : القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 323.

[2] الخصائص : 12/2 ، وينظر : الاقتراح : 121 .

[3] الخصائص :14/2 ، وينظر : المزهر : 257/1 .

[4] ينظر : لغة الشعر : 312 ، وأصول النحو عند السيوطي بين النظرية والتطبيق :143 .

[5] ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام : 111 .

[6] ينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 44-45 ، والمزهر : 255/1-257 .

3- الاختلاف في إبدال الحروف , نحو : أولئك وإولائك .

4- الاختلاف في الهمز والتّليين , نحو : مستهزئون ومستهزون .

5- الاختلاف في التقديم والتأخير , نحو : صاعقة وصاقعة .

6- الاختلاف في الحذف والإثبات , نحو : استحييت واستحيت , وصددت وأصددت .

7- الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفا معتلا , نحو : أمّا زيد , وأيما زيد .

8- الاختلاف في الإمالة والتفخيم : مثل : قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل .

9- الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله , فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم نحو: { اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ } البقرة : ١٦.

10- الاختلاف في التذكير والتأنيث : فإن من العرب من يقول : هذه البقر ، وهذه النخل , ومنهم من يقول : هذا البقر , وهذا النخل .

11- الاختلاف في الإعراب , نحو : ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإنّ هذين وإنّ هذان.

12- الاختلاف في صور الجمع , نحو : أسرى وأسارى .

13- الاختلاف في التحقيق والاختلاس , نحو : يأمرُكم ويأمرْكم , وعُفِي له وعُفْي له.

14- الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث , مثل هذه أمّة , وهذه أمّتْ .

15- الاختلاف في الزيادة , نحو : انْظُر وانْظُور .

16- الاختلاف في التضاد , وذلك كقول حِميَر للقائم : ثِبْ أي أقعد .

ويرى مكرم " إنّ هذه الاختلافات لا تمس جوهر اللغة الواحدة من حيث البنية , ومن حيث الجذور , ومن حيث الاشتقاق , هي اختلافات يسيرة "[1] ؛ وقد أرجعها الدكتور علي عبد الواحد وافي الى جملة من الأمور منها : عوامل اجتماعية ، وعوامل جغرافية فضلا عن عوامل جسمية فيزيولوجية [2] ، وتخلص الباحثة الى موقف مكرم من الاحتجاج بلغات العرب بجملة من الامور ، وهي كالآتي [3] :

1- في الواقع كان للغويين منهج أمام الأخذ من هذه اللغات أو رفضها , وهو منهج واضح المعالم , بين السمات يقوم على نهج علمي دقيق , يضع الأمور في نصابها .

---

[1] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 45.

[2] ينظر : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل : 105-106.

[3] ينظر : قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 47.

2- اللغات مهما اختلفت فهي مقبولة ، ومن الممكن الاحتجاج بها في بناء القاعدة واستنباط الدليل ؛ فإعمال (ما) النافية عند الحجازيين , وإهمالها عند التميميين مقبول في كلتا اللغتين لان القياس يقبلهما .

3- اختلاف المقاييس قوة وضعفا لا يؤدي الى رفض اللغات والاحتجاج بها, ولكن من حق اللغوي أن يختار فقط ما هو أقوى دليلاً , وأثبت قياساً .

4- إذا كان هناك بعد في اللغتين بأنْ قلّت إحداهما وكثرت الأخرى , فمن حق اللغوي أن يأخذ بأقواهما رواية وقياسا , وليس معنى ذلك أنَّ اللغة التي ضعفت روايتها ، وَوَهِيَ قياسها مرفوضة لا تؤخذ ولا يحتج بها , وإنما الموقف فقط اختيار لا اجبار.

وصرح الدكتور مكرم أنّ " اللغة واحدة والاختلافات يسيرة , ومعظمها يرجع إلى صفات الحروف من جهر وهمس , وتفخيم وترقيق وتحقيق همز وتسهيل , وهذا أمر بَدَهيٌّ يقتضيه التطور اللغوي" [1] ؛ ولا يذهب بعيداً في هذه القضية مدّعياً أنَّ لكل لهجة قواعدها الخاصة واستقلالها الذاتي ؛ لأنَّ هذا متنافٍ مع واقع القبائل في الجزيرة العربية قبل الإسلام , فوشائج القربى بين اللهجات متلاحمة , والبناء اللغوي في أصوله وقوانينه متكامل" [2] .

وقد أشار مكرم الى أنَّ الخلافات اللهجية من حيث التراكيب النحوية والتغيرات الاسلوبية , قليلة قياساً الى الخلافات اللغوية " لان الخلافات اللغوية مجالها فسيح ومدى الاختلافات فيها كثير من الاختلافات الخاصة بالظواهر النحوية " [3] ؛ ومن اللهجات التي استدل بها الدكتور مكرم , ما يأتي:

1- **(إنْ) النافية ولغة أهل العالية :** (إنْ) النافية عند أهل العالية , ترفع المبتدأ وتنصب الخبر , مثل (ليس) لأنها أختها في النفي , ونقل الرواة عن اهل العالية أنهم يقولون : (إنْ ذلك نافعك ولا ضارك) فاسم الإشارة اسمها ونافعك خبرها , ونقل أيضا (إنْ احد خيرا من احد إلا بالعافية) ؛ وعلى هذا التركيب الذي سمع من أهل العالية قرأ سعيد بن جبير: { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } الأعراف:194 ، ومنه ما جاء من الشعر على وفق اللغة :

أ- إنْ هُوَ مُسْتَوْلِياً عَلى أَحَـــدٍ إلاّ عَلى أَضْـعَفِ المَجَانِينِ [4]

---

[1] قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية : 58.

[2] المصدر نفسه : 59.

[3] ينظر: ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام :92-94.

[4] قائله مجهول ، من شواهد أوضح المسالك : رقم 111 ، وشرح ابن عقيل : 122/1 ، وشرح الاشموني : 255/1 ، وهمع الهوامع : 116/2 .

ب- إن المرءُ مَيْتاً بانْقضِاء حَياتِه ولكن بأنْ يُبْغَى عليه فَيُخْذَلا [1]

اما موقف البصريين من هذا التركيب فأنهم لا يقيسون عليه ومنعوه , وحجتهم أنَّ (إن) من الحروف التي لا تختص وما لا يختص لا يعمل ؛ أما الكوفيون فإنهم يقيسون على القليل النادر , ووجهة نظرهم أنَّه جاءت على هذه اللغة قراءة سعيد بن جبير { إنْ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم } الأعراف :194 , والقراءات مقدسة متواترة او شاذة في باب التقعيد اللغوي , والتركيب النحوي الى جانب ذلك أيدت بالشعر العربي[2] ؛ ولو تتبعنا كتب اشهر النحاة البصريين نجد أنّ سيبويه يختار في إن المخففة التي بمعنى (ما) رفع الخبر لأنها أصلا من ما ، أما المبرد فيجريها مجرى (ما) [3] ، ومعنى ذلك أنَّ مكرم قد أطلق الحكم على عموم البصريين في هذا التركيب .

2- المثنى ولغة بلحارث بن كعب: المعروف عند النحويين جميعا أن المثنى يرفع بالألف وينصب ويجر بالياء , ولكنه ورد عن لهجة قبيلة بلحارث بن كعب ان المثنى يرفع وينصب ويجر بالألف , وقد اضاف اليها الرواة أنها قبيلة خثعم وزبيد وكنانة وبعض القبائل الاخرى , وهذا ان دل على شيء انما يدل على انها لهجة موثقة فليست لهجة لقبيلة واحدة , وأيد هذا التركيب يقول هوبر الحارثي :

تزود منا بين أُذْناه طعنةً دَعَتْه إلى هابي التراب عقيم [4]

ومن قول الشاعر:

إنَّ أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها [5]

وأورد مكرم ان خمسة من القراء السبعة[6] ، قرأوا على نسج هذا التركيب قوله تعالى: { إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } طه: 63 ؛ وعلق مكرم منكرا قول من انكر هذه القراءة إذ قال : " وعلى الرغم من كثرة القبائل التي كانت تلزم المثنى الالف رفعا ونصبا وجرا , وعلى الرغم من أنّ هذه

---

[1] قائله مجهول ، من شواهد همع الهوامع : 117/2.

[2] ينظر : ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام : 94.

[3] ينظر : الكتاب : 475/1 ، والمقتضب : 362/2 .

[4] الطعنة العقيم: هي التي لا تتكرر ، ينظر : ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام :95.

[5] اختلف الرواة في نسبته ، فمنهم من ينسبه إلى رؤبة ، ومنهم من ينسبه إلى أبي النجم العجلي ، ينظر : ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام :95.

[6] ينظر : النشر في القراءات العشر : 321/2 ، والإتحاف : 304 , وتفسير الطبري : 137/6 ، ومعجم القراءات القرآنية قراءة رقم 5197 .

اللهجة قرأ بها خمسة من القراء السبعة , وعلى الرغم من انها مؤيدة بالشعر العربي , فأن قوما من النحويين فتنوا بالمقاييس , واستبدت بهم الاصول التي اصلوها في قواعد النحو زعموا ان هذه القراءة لحن , والقراءة بها لا تجوز " [1] .

وكذلك من اللهجات التي استشهد لها الدكتور عبد العال مكرم : (ما)النافية بين لغتي الحجاز وتميم[2] ، وبناء (أمس) في اللهجة الحجازية على الكسر مطلقا ، اما اللهجة التميمية فقد ورد فيها هذان التركيبان : إما إعرابه إعراب ما لا ينصرف مطلقا وهذا الاعراب لهجة لبعض بني تميم ، وإما إعرابه في حالة الرفع إعراب ما لا ينصرف ، وبناؤه على الكسر في حالتي النصب والجر, فيقولون : ذهب امسُ , واعتكفت امسِ وعجبت من امسِ: وهذا الإعراب لهجة لجمهور بني تميم[3] .

ب- الامثال وموقف مكرم من الاستشهاد بها :

تعد الأمثال من بقايا أقدم النثر العربي ؛ لأنَّ بعضها كان سائراً مشهوراً في الجاهلية يجري على ألسنتهم مجرى الشعر , وهي عِظاتٌ بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح[4] ؛ واختار مكرم ما ذكره الفارابي في مقدمة كتابه ديوان الأدب للمثل ، إذ قال : " والمثل ما تراضاه الخاصة والعامة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم , وفاهوا به في السراء والضراء , واستدروا به المتمنع من الدر , وتوصلوا به الى المطالب , وتفرجوا به عن الكرب المكربة , وهو من ابلغ الحكمة , لان الناس لا يجتمعون على ناقص او مقصر في الجودة او غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة " [5] .

ولقد أجادَ العربُ في هذا النوع من الأدب وخلفوا لنا ما يدل على عقليتهم أكثر مما يدلنا الشعر والقصص ، وأرجع أحمد أمين السبب في ذلك إلى " أنَّه يوافق مزاجهم العقلي وهو النظر

---

[1] ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام : 95-96.

[2] ينظر : الكتاب : 57/1 ، والخصائص : 125/1 ، وهمع الهوامع : 109/2 ، وظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام : 101

[3] ينظر: الكتاب : 284/3 ، وشرح شذور الذهب : 88 ، وظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الاسلام :102-103 ، ولغة تميم دراسة تاريخية وصفية :495 .

[4] ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو : 30 ، وتاريخ النحو وأصوله : 91/1.

[5] ديوان الأدب : 74 ، وينظر : ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام :24.

الجزئي الموضعي لا الكلي الشامل , لأنَّ المثل لا يستدعي إحاطة بالعالم وشؤونه ولا يتطلب خيالاً واسعاً ولا بحثاً عميقاً , إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة " [1] .

اما موقف الدكتور مكرم من الاستشهاد بالأمثال ، فقد أورد بعضاً منها مستشهداً بها في الغالب للاستئناس ولم يعتمد عليها في تقعيد القواعد وإثباتها ، وإنما أوردها بعد إثبات القاعدة والاستشهاد لها من القرآن والشعر فيأتي بالشاهد النثري (المثل) بعد ذلك ؛ فمن الأمثال والحكم ما استشهد به على التوكيد بالنون الشديدة , وذلك مثل : لألحقنّ قطوفها بالمعناق , وحكاه الأصمعي عن أبي عمرو , لألحقنْ بالنون الخفيفة [2] .

ومن الامثال التي تناولها الدكتور مكرم من الوجهة اللغوية , نحو: (لبيك وسعديك) ، ففسر معنى لبيك , فقال :(إلباب بك بعد إلباب) , والألباب : اللزوم , أي : لزوم لطاعتك بعد لزوم , وإقامة عند محبتك بعد اقامة , ويقال , ألب الرجل بالمكان : إذا أقام فيه ؛ وأما(سعديك) فمأخوذ من الإسعاد , وهو الإجابة والمطاوعة كأنه قال : أجبتك إجابة بعد إجابة وأسعدتك إسعادا بعد إسعاد ؛ وكذلك ما استشهد به للفرق بين معنى الفعلين يشوب ويروب , قال: (يشوب ولا يروب) قاله الاصمعي في الأمثال , هو يشوب ولا يروب وهو صحيح معناه: يخلط ولا يخلص لأنَّ الشوب : الخلط , ومزج اللبن بالماء , والروب : مصدر راب اللبن يروب روباً: إذا خثر [3] .

ثانيا : الشعر وموقف مكرم من الاستشهاد به

وهو من المصادر التي صَبّ عليها النحويون جُلّ اهتمامهم , وجعلوه الشاهد الاساسي على صحة أقيستهم النحوية , والمقصود به هنا: ذلك الكلام المنظوم لمن ينتسب الى القبائل العربية الموثوق بفصاحتها , وصفاء لغتها قبل بعثة الرسول الكريم(ﷺ) ، وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بدخول الأعاجم , وكثرة المولدين , وفشوّ اللحن [4] .

عني علماء اللغة بالشعر عناية فائقة حتى تخصصت كلمة الشاهد فيما بعد ، وأصبحت مقصورة على الشعر فقط , وكذلك النحاة فقد اعتمدوا عليه في تقرير أحكام اللفظ على الشعر [5] , إذ كان مقصدا من مقاصد النحاة يسمعون منه النصوص التي جعلوها أساساً لتقعيد قواعدهم ، وجعلوه شاهداً على ما جاء في القرآن الكريم نفسه من الظواهر اللغوية والنحوية والصرفية , وبنوا

---

[1] فجر الإسلام :64, وينظر : ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الإسلام :26

[2] ينظر : الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي : 216.

[3] ينظر : المصدر نفسه : 314 ، 316 .

[4] ينظر: دراسات في كتاب سيبويه:71.

[5] ينظر: البحث اللغوي عند العرب:31 ، والقياس في اللغة العربية : 35 .

الكثير من القواعد على الشعر وحده من دون غيره من الشواهد , لأنه كان علم قوم لم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه , فهو ديوان العرب[1] , قال عبد الله بن عباس(ت68هـ): " الشعر ديوان العرب , فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه "[2] ؛ وقال ابن فارس(ت395هـ) : " الشعر حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله جل ثناؤه وغريب حديث رسول الله ﷺ , وحديث صحابته أجمعين " [3] ؛ لذا صار الشعر والاستشهاد به بمنزلة الحكم الفصل الذي يتخذونه حجةً فيما يختلفون فيه[4] .

ذكر مكرم أنَّ للشعر بالغ الأثر في خدمة القرآن الكريم ، قال: " الشعر الجاهلي كان الغرض من جمعه خدمة القرآن الكريم" [5] ، وكذلك قال: " قد فاضت كتب التراث الإسلامي بالشواهد الشعرية التي خدمت القرآن الكريم في توضيح غريبه وكشف معانيه , وقد بذل العلماء القدامى الجهد الصادق في مجال القرآن الكريم "[6] ، وقال: " الشعر اثر من أثار القرآن الكريم , وفضل من أفضاله على النحو واللغة فلولا القرآن الكريم ما جمع هذا الشعر وما اهتم به الرواة "[7] .

ويسجل مكرم أن أول رواية تاريخية وردت عن الاستشهاد بالشعر في تفسير مفردات القرآن وتوضيحها , تمثلت في سؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس(رضي الله عنه) , فقد روي انه كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر ومما أورده مكرم من ذلك كثير[8] ، ومن ذلك :

- قال: اخبرني عن قوله تعالى: **{لَا وَزَرَ}** القيامة/11، قال: الوزر: الملجأ ؛ قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقال: نعم أنا سمعت قول عمرو بن كلثوم :

لعمرك ما إنْ له صخرة لعمرك ما إن له من وَزَرْ[9]

---

[1] ينظر : طبقات فحول الشعراء : 24/1 ، والقياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة :12 ، والقياس في النحو العربي نشأته وتطوره : 105 .

[2] الإتقان : 119/1 , وينظر : شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد:42.

[3] الصاحبي في فقه اللغة : 275

[4] ينظر : الشواهد والاستشهاد في النحو :35.

[5] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 332 .

[6] من الدراسات القرآنية : 84 .

[7] القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 329.

[8] ينظر : شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد : 42 ، وغريب القرآن الكريم في عصر الرسول ﷺ والصحابة والتابعين :87.

[9] ينظر : شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد:44 , والبحر المحيط : 382/8.

وذكر مكرم إنّه حصر هذه الأبيات التي استشهد بها ابن عباس فبلغت (190) شاهدا " وهذا يدل من دون شك على مقدرة ابن عباس اللغوية , وحفظه للشعر العربي ومعرفته الدقيقة بمواطن الاستشهاد بهذا الشعر" [1] .

بيّن الدكتور عبد العال سالم مكرم موقف المدرستين البصرية والكوفية من الاستشهاد بالشعر في مجمل حديثه عن الشواهد الشعرية ، وقد أيد الكوفيين في نظرتهم الى الشواهد النحوية لما يراه في ذلك من فائدة للغة وتطورها ونموها , إذ قال : " ولما ظهر النحو ونمت أصوله ، وتشابكت فروعه ، وبلغ أشده كانت أشعار العرب المحور الذي يدور حوله النحو , وقد اعتمد عليها البصريون كل الاعتماد وحصروا هذه الأشعار في شعراء الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين وتحروا في تلقي هذه الاشعار فقصروها على قبائل معينة ذات طابع خاص ؛ وأما الكوفيون فقد كانوا متساهلين في الأشعار العربية التي يستشهد بها فتلقوا الشعر من كل قبيلة , وأخذوا من كل لهجة , وتعلّقوا بالشاذ وعدوه أصلا يقاس عليه , وتجد في شواهدهم من الشعر ما لا يعرف قائله بل ربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر "[2] ؛ وكذلك قال : " إنَّ نظرة الكوفيين نحو الشواهد النحوية أكثر عمقاً وأعظم فائدة للغة وتطورها ونموها "[3] .

اما موقفه من الاستشهاد بالشعر فقد عمد الى الاستدلال بشواهد الشعراء الطبقة الاولى(الجاهليين) على وجه الخصوص ، وقد أفرد مؤلفاً عنوانه (شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد) , ركّز فيه على قُدسية الشعر الجاهلي باحثاً عن نصيب هذا الشعر في بناء القواعد , وإنشاء الاساليب , وتصحيح الخطأ , وبعد البحث والدراسة لشعر المعلقات وتفنيدها وأعلن " أنَّ الشعر الجاهلي له القدح المعلّى في الاستشهاد النحوي , فما أكثر شواهده التي فاضت بها كتب النحو من عصر سيبويه الى عصر ابن هشام خاتمة المجتهدين في بناء القواعد وتجديد النحو"[4] ؛ ولم يكثر مكرم من الاستشهاد بالشعر في كتبه مقارنة باستشهاده بالشاهد القرآني والقراءات القرآنية لذا نجد استشهاده قليل جدا بالمسائل النحوية ، اما القضايا اللغوية , فهو يأتي بالشعر لتقرير مسألة لغوية , ومن ذلك استشهاده بشعر لبيد عندما تناول ظاهرة الاضداد , اذ ذكر ان كلمة (جلل) تكون للصغير ومثل ذلك قول العرب ، أمر جلل أي : صغير ، قال لبيد:

---

[1] شواهد سيبويه من المعلقات : 46.

[2] المدرسة النحوية في مصر والشام : 250 .

[3] المصدر نفسه : 424 .

[4] شواهد سيبويه من المعلقات في ميزان النقد : 68.

وارنى اريدَ قد فارقتني ومن الرّزء كثيرٌ وَجَلْ [1]

ثم أورد مكرم ان رواية البيت في شرح الديوان هي (ومن الأرزاء رُزْءِ ذو جَلَل)

اما استشهاده بشعراء الطبقة الثانية المخضرمين ، فهذا بيت حسان بن ثابت أورده لتقوية قاعدة نحوية : جموع القلة تصغر على صيغتها ويعاد عليها الضمير مفردا , مثل قوله تعالى : { وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ } النمل : 66 ، ثم قال : وقد حدثونا أن مما أخذته الخنساء على قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما

انه آثر جمع القلة في الجفنات والاسياف , ولا ينسجم مثل هذا في المبالغة والمدح وكان الاجدر بالشاعر ان يقول : الجفان والسيوف[2] ؛ فهنا أكد قاعدة نحوية بقراءة قرآنية ودعمها بالشعر ، ومما استشهد له من الشعر لتقوية قراءة شاذة , قراءة قوله تعالى : { مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ } الفاتحة :4 ، إذ قال " قرأ نافع في رواية عنه شاذة ملكي بإشباع كسر الكاف , وقد ذكر ابن مالك في شواهد التوضيح أنَّ الاشباع من الحركات الثلاثة لغة معروفة , وحكى الفراء عن بعض العرب : اكلت لحما شاة , اي : لحم شاة , وانشد :

تنفى يداها الحصى في كلِّ هاجرة نفيَ الدنانيرِ تنقادُ الصياريفِ [3]

اما موقفه من الاستشهاد بالأشعار مجهولة القائل فنجده لا يغفلها ويستشهد بها , ويحاول نسبتها في الكثير الغالب , ومن الشواهد على استشهاده بشعر مجهول القائل ما اورده في اعطاء ان المصدرية حكم ما المصدرية في الاهمال) كقوله :

أنْ تقرآنِ على أسماء ويحكما مني السلام وألا تُشعرا أحدا [4]

والشاهد على استشهاده بشعر مجهول القائل وتكفل مكرم بنسبته الى قائله ما اورده في حديثه عن (اعطاء اذا حكم حتى في الجزم بها) كقوله :

واستغن ما اغناك ربك بالغنى واذا تصبْك خصاصةٌ فتحمل

وقد ذكر مكرم في الحاشية أنَّ هذا البيت لعبد قيس بن خفاف[5] .

---

[1] ينظر : الأزهية : 172 ، والمشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن الكريم :129 ، والحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي : 350

[2] ينظر : شرح الاشموني : 2 / 67 ، والمدرسة النحوية في مصر والشام : 31 .

[3] ينظر : القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية : 322 .

[4] ينظر : المنصف : 278/1 ، وخزانة الأدب : 559/3 ، والتعريب في التراث اللغوي : 18 , وقائله مجهول .

[5] ينظر : الأشباه والنظائر في النحو (بتحقيق مكرم): 335/1 .

Abstract

The current study entitled (Linguistic and grammatical works of Abd elaal Salim Makram) deals with the works of Dr. Abd elaaL Salim Makram who served the language and did a great Scientific efforts by his wide knowledge , accurate observation , simple style readiness to help Arabic obviously and loyalty, a matter which made importance of his work.

This paper is about Dr. Abd elaal Salim Makram , which starts with introduction and four chapters with a finding . The introduction is about Auto biography of Makram , which begins with his growing, scientific study, culture, teachers, students, authoresses and categories. He studieshis linguistic, grammar curriculum in his study and the important feature.

Chapter one stands on Makrams' opinion about measuring and explaining . The second chapter deals with Makrams' linguistic works and important of his opinions with the beginning of languages' beginning and its features of development and circulation of it and to study phenomenon of pronunciation, like synonym, difference of Islamic terms.

Chapter three is about Makrams' grammatical works and important of his opinions about history of languge and his studies on some of the grammatical issues through examples.

The last chapter shows his scientific works and the impact of themon the classical texts.The researcher depended on a list of sources and classical Arabic references as well as the modern ones to accomplish the study.